

العنوان: "تأثير شبكات التواصل الاجتماعي على التحصيل
الدراسي لدى الطلبة الجامعيين" – دراسة ميدانية على عينة
من طلبة كليتي العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة قلمة ٨
ماي ١٩٤٥ والشاذلي بن جديد بالطارف

<https://dspace.univ-guelma.dz/jspui/handle/123456789/18668>



إعداد

محمد خالد الديباس

المقدمة

تندرج هذه الدراسة ضمن الأبحاث التي تسعى إلى الكشف عن العلاقة بين استخدام شبكات التواصل الاجتماعي — والفيسبوك تحديدًا — والتحصيل الدراسي لدى الطلبة الجامعيين، وقد أُجريت على عينة من طلبة كليتي العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة قلمة ٨ ماي ١٩٤٥ والشاذلي بن جديد بالطارف. شملت العينة ٣١٥ طالبًا جامعيًا تم اختيارهم بطريقة عشوائية قصدية، واعتمد المنهج الوصفي واستمارة قياس الاتجاه كأداة لجمع البيانات. Université 8 mai 1945. وفي إطارها النظري، وظّفت الدراسة عدة نظريات إعلامية واتصالية لتأطير موضوعها، وسنتناول في هذا النقد أبرز هذه النظريات وهي: نظرية الاستخدامات والإشباع، ونظرية الحتمية التكنولوجية لمارشال ماكلوهان، ونظرية الحتمية القيمية في الإعلام لعزي عبد الرحمن. سنعمل على تقييم مدى ملاءمة توظيف كل نظرية لموضوع الدراسة، ونقاط قوتها وثغراتها المنهجية والمعرفية، ومدى نجاح الباحث في استثمار الإطار النظري لتفسير النتائج الميدانية.

أولاً: نظرية الاستخدامات والإشباعات

تُعدّ نظرية الاستخدامات والإشباعات (Uses and Gratifications Theory) من أكثر النظريات شيوعاً في بحوث الإعلام والاتصال، وقد نشأت في أربعينيات القرن العشرين مع أعمال هيرتا هيرزوغ وإليهو كاتز ثم تبلورت بشكل أوضح في السبعينيات. تنطلق هذه النظرية من فرضية محورية مفادها أن الجمهور فاعل ونشط في اختياره لوسائل الإعلام، وأنه يستخدم هذه الوسائل لتلبية حاجات نفسية واجتماعية ومعرفية محددة. وفي سياق هذه الدراسة، وُظفت النظرية لتفسير لماذا يلجأ الطلبة الجامعيون إلى استخدام الفيسبوك وما الإشباعات التي يحققونها من ذلك، سواء كانت معرفية ترتبط بالتحصيل أو ترفيهية واجتماعية.

أولاً: نظرية الاستخدامات والإشباعات

غير أن ثمة ملاحظات نقدية جوهرية يمكن إبدائها حول هذا التوظيف. أولى هذه الملاحظات أن النظرية نشأت أصلاً لتفسير التعرض لوسائل الإعلام التقليدية كالراديو والتلفزيون والصحف، حيث كان الجمهور يختار بين عدد محدود من الوسائل والمضامين. أما في البيئة الرقمية المعاصرة، فإن الوضع مختلف جذرياً؛ فشبكات التواصل الاجتماعي لا تقدم مضموناً واحداً بل تجمع بين مضامين متعددة ومتداخلة في آن واحد — إخبارية وترفيهية وتعليمية واجتماعية — مما يجعل الفصل بين أنماط الإشباعات أمراً بالغ الصعوبة. وقد كان على الباحث أن يعالج هذه الإشكالية صراحةً، بدلاً من تطبيق النظرية بصورتها الكلاسيكية دون تكيفها مع خصوصية الوسائط الرقمية.

أولاً: نظرية الاستخدامات والإشباع

ثانيًا، تفترض النظرية أن المستخدم عقلائي ومدرك لدوافعه واحتياجاته، وأنه يختار الوسيلة بوعي لتحقيق أهداف محددة. لكن الواقع يبين أن جزءًا كبيرًا من استخدام شبكات التواصل الاجتماعي لا يكون مخططًا ولا واعيًا، بل يتم بشكل اعتيادي وقهري أحيانًا، خاصة مع ما تعتمد هذه المنصات من تقنيات تصميم إدماني مثل التمرير اللانهائي والإشعارات المستمرة وخوارزميات التوصية. وهذا البعد الإدماني اللاإرادي يقوّض الفرضية الأساسية للنظرية حول الجمهور النشط الفاعل، ويجعل تفسير تأثير الفيسبوك على التحصيل الدراسي من خلال هذه النظرية وحدها تفسيرًا ناقصًا. فالطالب الذي يقضي ساعات طويلة على الفيسبوك قد لا يكون يسعى لإشباع حاجة معرفية أو اجتماعية محددة، بل قد يكون واقعًا في نمط استخدام قهري لا يخضع لمنطق الاختيار الحر..

أولاً: نظرية الاستخدامات والإشباع

ثالثاً، تُركّز نظرية الاستخدامات والإشباع على الفرد كوحدة تحليل، وتُغفل السياق الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الذي يتم فيه الاستخدام. وفي حالة الطلبة الجزائريين، هناك عوامل بنيوية كثيرة تؤثر في طبيعة الاستخدام ونوعيته، من بينها البنية التحتية الرقمية وتكلفة الإنترنت ونوعية الأجهزة المستخدمة والبيئة الجامعية ذاتها. كما أن النظرية لا تأخذ في الاعتبار ديناميكيات الضغط الاجتماعي التي قد تدفع الطالب إلى استخدام هذه الشبكات ليس لأنه يريد ذلك بالضرورة، وإنما لأن محيطه الاجتماعي يفرض عليه ذلك. ولذلك كان من الأجدر بالباحث أن يدمج منظوراً سوسيولوجياً يكمل المقاربة الفردانية التي تتبناها النظرية.

ثانيًا: نظرية الحتمية التكنولوجية

تنسب نظرية الحتمية التكنولوجية (Technological Determinism) بشكل رئيسي إلى مارشال ماكلوهان الذي صاغ مقولته الشهيرة بأن الوسيلة هي الرسالة، بمعنى أن طبيعة وسيلة الاتصال ذاتها وليس مضمونها هي التي تشكّل المجتمعات وتؤثر في السلوك البشري. يعتبر ماكلوهان أن وسائل الاتصال امتداد لحواس الإنسان، وأن الناس يتكيفون مع البيئة من خلال حواس معينة ذات صلة بنوع الوسيلة المستخدمة وتنطلق هذه النظرية من رؤية حتمية ترى أن التكنولوجيا هي المحرّك الأساسي للتغير الاجتماعي والثقافي.

ثانيًا: نظرية الحتمية التكنولوجية

في سياق الدراسة، يُفهم توظيف هذه النظرية على أن شبكات التواصل الاجتماعي، بوصفها تكنولوجيا إعلامية جديدة، تفرض بطبيعتها أنماطًا سلوكية معينة على الطلبة تؤثر حتمًا في تحصيلهم الدراسي. لكن هذا التوظيف يثير عدة إشكاليات نقدية جدية.

الإشكالية الأولى تتعلق بمفهوم الحتمية ذاته. فالقول بأن التكنولوجيا تحدد السلوك بشكل حتمي يُلغي دور الفاعل الاجتماعي ويختزل العلاقة المعقدة بين الإنسان والتكنولوجيا في معادلة سببية خطية أحادية الاتجاه. والواقع أن العلاقة بين الطالب وشبكات التواصل الاجتماعي علاقة تفاعلية معقدة تتأثر بعوامل كثيرة منها: مستوى الوعي الرقمي لدى الطالب، وطبيعة التخصص الدراسي، والبيئة الأسرية، والدافعية الذاتية نحو التعلم، والسياسات الجامعية تجاه التعليم الرقمي. فليس كل طالب يستخدم الفيسبوك يتأثر تحصيله سلبًا بالضرورة، إذ يوجد طلبة يوظفون هذه الشبكات في أغراض أكاديمية بحثية كالتواصل مع الأساتذة وتبادل المراجع العلمية والمشاركة في مجموعات دراسية.

ثانيًا: نظرية الحتمية التكنولوجية

الإشكالية الثانية أن النظرية تعرضت لانتقادات واسعة في الأدبيات الأكاديمية الغربية ذاتها. فقد اعتبر كثير من الباحثين أن مقارنة ماكلوهان تتسم بالعمومية المفرطة وبنوع من الغموض المفاهيمي الذي يصعب معه اختبارها إمبيريقياً. كيف يمكن، مثلاً، قياس "حتمية" التكنولوجيا في التأثير على التحصيل الدراسي من خلال استمارة استبيان؟ إن أدوات القياس الكمية التي اعتمدها الباحث لا تتناسب مع الطبيعة الفلسفية الكلية لنظرية ماكلوهان التي هي أقرب إلى نظرية ثقافية كبرى منها إلى نظرية إجرائية قابلة للاختبار الميداني المباشر. وهذا يكشف عن فجوة بين الإطار النظري والإطار المنهجي في الدراسة.

ثانيًا: نظرية الحتمية التكنولوجية

الإشكالية الثالثة هي وجود تناقض معرفي (إبستمولوجي) بين نظرية الحتمية التكنولوجية ونظرية الاستخدامات والإشباعات اللتين وظفهما الباحث معًا. فالأولى ترى أن التكنولوجيا هي التي تتحكم في سلوك الإنسان وتشكله، بينما الثانية تنطلق من العكس تمامًا وتؤكد أن الإنسان هو الفاعل الذي يختار ويتحكم في استخدامه للوسائل الإعلامية. هذا التناقض الجوهرى بين النظريتين كان يستوجب من الباحث مناقشة صريحة وتبريرًا واضحًا للجمع بينهما، وبيان كيف يمكن التوفيق بين منظور حتمي يجعل التكنولوجيا سيدة الموقف ومنظور وظيفي يجعل الإنسان سيد اختياراته. غياب هذه المناقشة يُضعف الاتساق الداخلي للإطار النظري ويجعله يبدو تجميعيًا أكثر منه تركيبياً..

ثالثاً: نظرية الحتمية القيمية في الإعلام

تُعدّ نظرية الحتمية القيمية في الإعلام من النظريات التي طوّرها الأكاديمي الجزائري عزي عبد الرحمن، وتقوم على مبدأ أساسي مفاده أن القيم — وخاصة القيم الدينية والأخلاقية المنبثقة من المرجعية الإسلامية هي التي ينبغي أن تكون المحدد الأساسي للعلاقة بين الإنسان ووسائل الإعلام. وبحسب هذه النظرية، فإن الاستخدام الأخلاقي والقيمي لوسائل الإعلام هو الذي يقود إلى نتائج إيجابية، بينما الاستخدام المنحرف عن القيم يقود إلى آثار سلبية.

في سياق الدراسة، يبدو أن الباحث وظّف هذه النظرية لتقديم إطار معياري يُقيّم من خلاله أنماط استخدام الطلبة للفيديو: فالاستخدام الجيد هو الذي ينسجم مع القيم، والاستخدام السيئ هو الذي يتعارض معها. لكن هذا التوظيف يثير عدة ملاحظات نقدية مهمة..

ثالثاً: نظرية الحتمية القيمية في الإعلام

الملاحظة الأولى تتعلق بإشكالية الانتشار والاعتراف العلمي. فنظرية الحتمية القيمية، رغم اجتهد صاحبها في تطويرها، تبقى محدودة الانتشار في الأدبيات الأكاديمية العالمية، ولم تحظَ بمراجعة نقدية واسعة من قبل المجتمع الأكاديمي الدولي. وفي البحث العلمي، فإن قوة النظرية لا تُقاس فقط بصلاية حجج صاحبها، بل أيضاً بمدى خضوعها للمراجعة النقدية والاختبار الإمبريقي من قبل باحثين آخرين في سياقات ثقافية ومنهجية متنوعة. والاعتماد على نظرية لم تُختبر بشكل كافٍ يُضعف من القدرة التفسيرية للإطار النظري.

ثالثًا: نظرية الحتمية القيمية في الإعلام

الملاحظة الثانية أن النظرية تنطلق من منطلق معياري ديني وأخلاقي أكثر منه وصفي تحليلي. فهي لا تسعى إلى فهم الظاهرة كما هي بل كما ينبغي أن تكون وفقًا لمنظومة قيمية محددة. وهذا التوجه المعياري، وإن كان مشروعًا في الفلسفة والأخلاق التطبيقية، يطرح إشكالية في البحث السوسيولوجي الإمبريقي الذي يتطلب الحياد القيمي (Value Neutrality) بالمعنى الذي طرحه ماكس فيبر. فعندما ينطلق الباحث من فرضية مسبقة مفادها أن الاستخدام "الأخلاقي" لشبكات التواصل هو الذي يقود إلى تحصيل جيد، فإنه قد يقع في فخ التحيز التأكيدي حيث يبحث عن بيانات تدعم مقولته المسبقة.

ثالثاً: نظرية الحتمية القيمية في الإعلام

الملاحظة الثالثة أن مفهوم "القيمة" في هذه النظرية يحتاج إلى تحديد إجرائي أكثر دقة. فما هي القيم المقصودة تحديداً؟ وكيف يمكن قياسها؟ وهل القيم التي يتبناها طلبة جامعة قالمة هي ذاتها التي يتبناها طلبة جامعة الطارف؟ وما أثر الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والمناطقية في منظومة القيم لدى هؤلاء الطلبة؟ إن غياب التحديد الإجرائي الدقيق لمفهوم القيمة يجعل استخدام النظرية فضفاضاً وقابلاً لتفسيرات متعددة قد لا تخدم أهداف البحث.

رابعًا: ملاحظات نقدية عامة حول الإطار النظري

بالإضافة إلى النقد الموجه لكل نظرية على حدة، يمكن إبداء ملاحظات عامة حول كيفية بناء الإطار النظري في هذه الدراسة.

الملاحظة الأولى أن الدراسة تتبنى ثلاث نظريات تنتمي إلى تقاليد معرفية مختلفة ومتباينة أحيانًا: تقليد وظيفي أمريكي (الاستخدامات والإشباع)، وتقليد ثقافي كندي (الاحتمية التكنولوجية)، وتقليد محلي جزائري ذو مرجعية دينية (الاحتمية القيمية). وهذا التنوع، وإن كان يبدو ثراءً نظريًا في الظاهر، إلا أنه يطرح تحدي الاتساق المعرفي. فكل نظرية تنطلق من افتراضات أنطولوجية ومعرفية مختلفة حول طبيعة الإنسان وعلاقته بالتكنولوجيا وبالمجتمع، والجمع بينها دون حوار نقدي صريح يجعل الإطار النظري أشبه بتجاور تراكمي منه ببناء تركيبي متماسك.

رابعًا: ملاحظات نقدية عامة حول الإطار النظري

الملاحظة الثانية تتعلق بالفجوة بين النظرية والمنهج. فقد استخدم الباحث المنهج الوصفي واستمارة الاستبيان وبرنامج SPSS ومعامل ارتباط بيرسون لاختبار الفرضيات. وقد بلغت معاملات بيرسون قيمًا مرتفعة (٠,٨٦ و ٠,٨٢) في اختبار الفرضيات، وهو ما يشير إلى ارتباطات قوية. لكن السؤال المنهجي المهم هنا: هل هذه الأدوات الكمية قادرة فعلاً على اختبار مقولات نظرية كبرى كنظرية الحتمية التكنولوجية أو الحتمية القيمية؟ إن القول بأن التكنولوجيا تحدد السلوك أو أن القيم تتحكم في نوعية الاستخدام هي مقولات تحتاج إلى مقاربات كيفية معمقة — كالمقابلات المعمقة ودراسة الحالة والملاحظة بالمشاركة — أكثر من حاجتها إلى معاملات ارتباط إحصائية. كما أن الارتباط الإحصائي لا يعني بالضرورة السببية، وهو ما كان ينبغي على الباحث التنبيه إليه بوضوح.

رابعًا: ملاحظات نقدية عامة حول الإطار النظري

الملاحظة الثالثة أن الدراسة كان يمكنها الاستفادة من نظريات أكثر حداثة وملاءمة لموضوعها. فهناك مثلاً نظرية رأس المال الاجتماعي لبير بورديو وروبرت بوتنام التي يمكن أن تفسر كيف يؤثر استخدام شبكات التواصل في بناء أو تآكل رأس المال الاجتماعي للطالب وانعكاس ذلك على مساره الأكاديمي. وهناك أيضاً نظرية الحمل المعرفي (Cognitive Load Theory) التي تفسر كيف يمكن لتعدد المهام الرقمية أن يستنزف الموارد المعرفية للطالب ويؤثر سلباً في تركيزه واستيعابه. وهناك كذلك أبحاث الانتباه الجزئي المستمر (Continuous Partial Attention) التي تصف حالة التششت الذهني الدائم الناجم عن التنقل بين شبكات التواصل والمهام الأكاديمية. هذه الأطر النظرية كانت ستقدم تفسيراً أكثر دقة وعمقاً للظاهرة المدروسة.



مجموعة جامعة
الجميع الذكية
للتعليم القابضة

MIDOCEAN
UNIVERSITY



Thank You

